بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ؛

أما بعد .. تقديم

اهتم علماء الإسلام بالعقيدة ؛ لأنها الركن الركين للإسلام ، فدافعوا عنها ضد خصومها وأعدائها ، ونفوا كل زيف أو افتراء ينسب إليها ، وما زالت العقيدة الإسلامية هى الأساس والأصل الذى يؤلف بين المسلمين مهما اختلفوا وفرقتهم الفتن والمشاكل ، التى فى أغلبها سياسية ، وتنازعتهم الأهواء .

وكانت أهم قضيتين اهتم بهما الأصوليون قضية التوحيد والعدل ، وهى تتناول تصور المسلمين للألهية ، فالله ، تعالى ، يتنزه عن كل تشبه أو تصوير أو مماثلة لخلقه، وهو ما كان يدخل على العقل الإنسانى من آن لآخر ، فيرسل الله الرسل لتصفية العقيده وتنقيتها مما علق بها من أوهام البشر ، فلقد عبد الناس الأصنام والأوثان والنجوم والكواكب والملائكة والجن ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وجعلوا بين الله وخلقه الوسائط ، من البشر وغيرهم ، فعبد الفلاسفة الأوثان والأفلاك، وعبد الثنوية والمجوس النور والظلمة ، وعبد العرب الأصنام والملائكة ، وهكذا .. لفساد تصورهم للألهية وأنه، تعالى، برىء عن كل شريك ومنزه عن كل تخيل أووهم.

وبعد الإسلام تأثر تصور المسلمين للتوحيد بعقائد كثيرة فاسدة ، فوقف علماء الأصول لهذه التصورات بالمرصاد ولمن جلبها أو دعا إليها .. وكذلك كان الحال فى قضايا العدل ، فالعدل الإلهى يقوم على أساس من الحكمة راسخ متين ، ولكن هناك من المسلمين من شارك فى الدعاية للجبر على حساب الحرية ، وللظلم على حساب العدل ، وللقضاء والقدر بالكفر والمعاصى ، على حساب الإيمان والهداية ..

حتى صار فكر فريق من المسلمين جبرياً صورياً ، قائماً على أن كل ظلم وجور وكفر ومعصية هى من قضاء الله وقدره الذى لا مرد له وبرأ الإنسان من فعله ، وخلط بين قضاء الله وعدله ! .. ولم يفرق بين إرادة الله التى خلق بها الكون ، وإرادته التى أنزل بها الأمر ! ...

وكانت مسألة **التحسين والتقبيح** إحدى مسائل العدل التى اختلف حولها المسلمون ، وقد يعتقد بعض الدارسين زيف المسألة وصوريتها ولفظيتها ، وهو صحيح فى بعض نواحيه ، إلا أن ما ترتب على هذه المسألة خطير حقيقة ؛ لأن جعل الشاذ قاعدة ، ليس من طبيعة الأمور ، كما أن تنحيه العقل عن إدراك مراد الله من الخلق خطأ فادح ، وإذا كان الشرع قد جاء بعقيدة عاقلة وهو الذى جمع بين نصه والعقل ، فصار نصاً عاقلاً ، فلم افتعل بعض المسلمين المفارقة ؟ !

لاشك أن ما ترتب على مقالة التحسين والتقبيح كان خطيراً فى عقائد المسلمين ، وترك أثرهُ فى حياتهم ، وحضَارتهم أيضاً ، فقد كان إنقاص أو تراجع دور العقل فى قيادة هذه الحضارة من كل الجوانب ، سبباً رئيساً فى القضاء على الأمة والإجهاز عليها، وجعل دَفَّة العلم والنور فى غير أيدى المسلمين ، وجعل الغلبة لأعدائهم عليهم... ولذلك نريد التصريح بأن مثل هذه المسألة لم تكن بالسطحية المتصورة ؛ لأن تنحية العقل عن مصاحبة الشرع فى حد ذاتها أكبر أخطاء المفكر المسلم التى قال بها ، والاتجاه الذى وقف وتصدى للظاهرة جدير بمعرفة موقفه ، لجمعه بين الاثنين وعدم تصوره لأحدهما دون الآخر .

كذلك عرض هذه المسألة على أنها عقائدية بحتة ، وأن المخالف فيها إما كافر أو قريب من الكفر هو التطرف بعينه ، وعدم فهم المسألة فى إطار كليات الإسلام وقواعده العامة وأصوله يؤدى إلى تكرار المقالات كما هى دون تعديل أو تصويب .

وليس حقيقة أيضاً أن السلف فَرَّقَ بين العقل والنقل وتصور المنازعة بينهما ، إذا أن اللغة التى نزل بها القرآن عاقلة الدلالات وتنتج من ذات نفسها منهجاً عقلياً وفكرياً فريداً ومتميزاً ، وكذلك نزل القرآن لينصر قضية العقل بداية من الفطرة ونهاية بالنظر والاستدلال والاستقراء والاستنباط والقياس والتجريب .

وهناك تركيب علمى ذكره القرآن الكريم ، جاء به العلم المنهجى فى العصر الحديث وهو الإدراك حسب قواعد من العرض والفهم والتذكر والتحليل والاستنباط والتركيب والنقد والتقويم .. وهكذا ، وهو قمة المنهج العلمى فى النظر ووضع القواعد والأهداف وترتيبها .

ولذلك حاولنا أن نتوسع فى عرض موقف المسلمين من قضية التحسين والتقبيح ، وهل هما عقليان أم شرعيان أم يعرفان بهما جميعاً ، وهو أنسب الأقوال التى ناصرناها لموضوعيتها ، وقد قال بها الزيدية ، والمسلمون بفرقهم كذلك ، إلا أن الأمر تفاوت عند بعضها ، بين الأوائل والمتأخرين منهم ، كما حدث عند الأشاعرة ، ولذلك حاولنا تحديد المصطلح ، وتسليط الضوء على موقف الغزالى على وجه التحديد ؛ لأنه المقصود برسالة الإمام يحيى ، والقواعد العقليةالتى يعرف ويرد إليها أمر التحسين والتقبيح ، ولذلك حاولنا التعرف على مذهب الأشاعرة وأخذنا الجوينى والغزالى والجرجانى أمثله لذلك . والأسباب التى دعت الغزالى للقول بأن التحسين والتقبيح شرعيان لا عقليان ، وتم رفض الموقف الثانى مع عرضٍ لحججهِ وآرائه ، وضربنا مثلاً لما يترتب عليه موقفه من نفى فكرة الوجوب على الله ، ورفضه جاء عقلياً خالصاً حسب تصوره للمشيئة والإرادة الإلهية ، وهو يمثل جانباً من المفارقة والتناقض ، فالعقل الذى أثبت قصوره عن إدراك الحسن والقبح هو نفسه الذى أنكر الوجوب على الله !

كما تعرضنا لموقف المعتزلة والزيدية ، ورد الإمام يحيى على الغزالى فى المسألة ، وضربنا مثالاً بالفعل الإلهى بين تصوريهما ، وكيف أستقبل الفريقان هذه القضية فى ضوء موقفيهما من قضية العدل الإلهى والإنسانى ، ودور المصطلح فى تمثل هذه الآراء وتطور الجدل فيها .

أعقبتُ هذه الدراسة ، بأخرى حول موقف الزيدية من الصحابة ، وهو بحث المراد منه إزاحة الغبار عن أجلى وأنصع وجوه الاعتدال والاتزان فى هذه المسألة ، فى مقابل موقف الرافضة المتطرف والمتشدد والذى بلغ ذروة الغلو .

فتناولنا مذهب أهل السنة من المسألة ، فكيف نظروا لصحابة رسول الله ، ﷺ ، وما هو موقفهم من الأحداث التى جرت بعد وفاة رسول الله ، ﷺ ؛ والفتنة الكبرى ، وموقفهم من الإمامة ، فى إيجاز غير مخل .

وقد كان لتصور الشيعة من الإمامة والنص والوصية دور بارز فى تطور وتطوير الأحداث ، ولذلك تناولت قضية النص وموقف الزيدية منه ، وحكمهم على مخالفه، وآراء بعض فرقهم فى القضية .

ومذهب أهل البيت وموقفهم من صحابة رسول الله، ﷺ ، واقتضى ذلك التعرض إلى قضية التكفير والتفسيق عموماً ، ثم عرضها فى ضوء الحكم على الصحابة ، وبيان موالاة آل البيت لصحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، وترحمهم على الشيخين ، وموالاتهم لأبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، ودفاعهم عنهما ضد مقالات المتطرفين من الروافض وأتباعهم أيضاً .

وأنهيْت البحث الثانى فى ذكر عجالة سريعة عن الزيدية وعقائدها وتاريخ نشأتها على حسب ما اقتضى المقام وتبعاً لما ذكره الإمام يحيى فى رسالته :

وبالجملة هذه رسالة جديرة بالقراءة والتحليل ووضعها فى مكانها المناسب من الفكر العقائدى فى الإسلام ، لما ورد فيها من فكر وجدل ، وعرض لمواقفه وقواعده من قضيتين بارزتين فى العدل والإمامة .

هذا والله أسأل أن يوفق للرشاد .

القاهرة : ١٥ / ١٢ / ١٩٩٩م

إمام عبد الله

obeikandl.com